الفصل الثانى

القاهرة.. بنت النيل

منـذ أن امتنع ورود مـاء فيشى للقاهـرة، لا مندوحـة لكل من يسكنها أو يزورها من أن يكون شربه وقفًا عـلى ماء النيل، هذا النهر الذى يلاحقه شعار: «من شرب منه عاد إليه»، وأصدق منه الشعار القائل: «من ارتوى منه لم يطق السلو عنه». أما للفلاح فماؤه، وإن عكر فهـو نعمة فيهـا الحياة، فـالناس تتشبث بهـذا النهر وتلوذ بـه، ففى فراقهم له عذاب الإشراف على الهلاك.

وهذه العبارة الأخيرة ليست من وحى بلاغة خطابية، لأنك لو شرقت أو غربت عشرة أميال بعيدًا عن شريط

obeikandi.com

الماء وضللت السبيل فستموت عطشًا إن لم يتداركك البدو أو جماعة من المنقبين عن البترول، فالمطر نادر، ولولا النيل لكانت القاهرة بقعة بلا اسم فى بيداء تمتد بلا انقطاع من جبال البحر الأحمر إلى شاطئ الأطلسى عبر الصحراء الكبرى..

أما أصدق شعار للنيل فهو المستمد من لونه، فاللون المفضل عند عجائز العقيلات فى انجلترا لحفلات الرقص يوصف بأنه أخضر نيلى، فاقترن النيل بخضرة يختص بها - اللهم عند الفجر حين يكتسى بغلالة جالت عليها الفرشاة التى رسمت ريش الطاووس، أو عند منتصف الليل حين يكون لسطح الماء لمعة الفولاذ.

أما الوصف الذى لا يلحق النيل فهو إباء الثبات، فإن مجراه قد خضع ككل شىء فى الوجود - لتصاريف الزمن. والخضوع هنا تنظيمى، للقضاء على نزوات النهر فى الماضى. إن النيل لمصر هو شريان قلبها. وكان أول بناء أقامه العرب حين رفعوا على مصر راية الإسلام هو مقياس النيل، عند الطرف الجنوبى لجزيرة الروضة،

ولا يزال هذا المقياس ماثلا للعيون وإن أقيم فوقه سياج حديث (وكان للفراعنة مقياس للنيل فى الأقصر وغيرها من المدن) ومقياس النيل بئر عميق كسيت جدرانه بالحجارة، فى وسطه عمود له تاج من طراز كورنثى. و«الذراع» هو وحدة القياس المبين عليه. إن استنباء مقياس النيل أشد لزومًا وأجل خطرًا من التكهنات بحال الطقس عند الأوروبيين قبيل العطلات الصيفية، فعلى مقدار ارتفاع المياه فى المقياس يتوقف الغد: إما خصب وإما جدب..

والموعد المرتقب لوصول فيضان النيل من أواسط أفريقية يقع فى أواخر أغسطس. حينئذ تخرج المدينة كلها للترحب بمقدمه فى احتفال يسمى «وفاء النيل». أما فى السنين التى يخشى فيها أن لا يفى النيل كعادته، فكانت طوائف المبتهلين تخرج من شوارع القاهرة على الشاطئ الشرقى وعلى رأسهم السلطان ومعه رجال الأديان جميعها – ائمة المسلمين وقسس القبط وحاخامات اليهود – فيقيمون صلاة جامعة للاستسقاء. كل يقرأ فى كتابه المقدس – ليمن الله عليهم بنيل واف عميم. وكان

الفراعنة فى القديم يحسبون الفيضـان من دموع إيـزيس وهى تبكى عـلى أوزيـريس، وكـانت لهم طقـوس تتصف بالقسوة، تطورت مع الزمن حتى وصلتنا وهى رحيمة، إنها طقوس زفاف النيل العاشق وعـروسه «عـروس النيل» كانت فى القديم فتاة يضحى بها كما كان يضحى أهل أثينا ببعض فتياتهم على قرون «ميناطور» الغول الـذى نصفه إنسـان ونصفه ثـور، ثم أصبحت العروس دميـة فى حجم فتاة.

والآن تتولى السدود تنـظيم النهر، فلن يتكـرر جفاف شهر يوليو الذى يعقبـه، بشكل درامى، غمـر الماء فـوق شواطئه الطينية العامرة بـالفيران. لم يعـد يتألف مـوكب الزوارق للاحتفال بالفيضان، وإذا علا ماء النيل فى أوائل الصيف فإنه علو قليـل، حينئذ يشكـو أهل القـاهرة من الرطوبـة تضاف إلى الحـرارة، فيهرب الأغنيـاء منهم إلى الاسكندرية، رطبة هى أيضًا ولكنها اندى نسبيًا، دع عنك شكوى أهل القاهرة أيضاً من كثرة البعوض.

لقد بدل النيـل مجراه عـلى مر الـزمن فتبدلت أيضًـا

مـرافقه، فـأقدم مـوانئ النيـل عـلى الشـاطئ الشـرقى للقـاهـرة (أمـا منف فهى على الشـاطئ الغـربى) كـانت بـالقرب من مـوقع بـابيلون الرومـانية إلى الجنـوب من القاهرة بنت اليـوم. وفى القرون الـوسطى كـانت الميناء هى «المقس» بالقرب من المـوقع الـذى يحتله الآن فندق الكونتننتال وحديقة الأزبكيـة، وحى المتاجـر والملاهى - بطابعها العصرى - الواقع على يسار خط يمتد من ميدان المحطة «باب الحديد» إلى باب اللوق عبر الأزبكية، كان أرضاً عامرة بالبساتين و الحدائق فى أوائل القرن التاسـع عشر تغمرها مياه النيل فى كل صيف. وفى القـرن الثامن عشـر كانت الاض التى تحتلهـا حديقـة الأزبكية مكـاناً لبحيرة متسعة (وقـد تقلص حجم هذه الحـديقة عـلى أثر التخطيط الحديث لمدينة القاهرة) ثم انحسر ماء البحيـرة وجفت أرضهـا بحيث استطاع نـابوليـون أن يستعرض فوقها جيشه. أما ميدان باب اللوق - كما نعرفه اليوم - بسـوقه ومحـطة الضاحيـة حلوان - فقد كـان فى القرون الوسطى مرفأ القاهرة - بابها من ناحية النهـر، فلما بدل النيل مجراه اختفى «المقس» وحل محله بولاق، وبرز من

النهر بجزيرته «الجزيرة الـوسطى الآن»، ثم انـدمج حى بولاق فى بقية أحياء السكنى وضاع بينهما - كما ضـاعت شلزى فى لنـدن، ولكنه كـان حتى أيام نـابوليـون الباب النهـرى للقاهـرة، وكـان الـذين يصلون بـالسفن إليهـا وينزلون عند بولاق لا يتبينون منظر المدينة لكثرة أكوام النفايات الشاهقة كالجبال ما بين النهر وسور المدينة.

ومجرى النيل لم يتبدل فحسب، بل جرى عليه عدوان الأسمنت المسلح، وكذلك الحـال مع تـلال النفايـات فقد تسلقها عديد من البيوت أو غطتها صفوف من الأشجار.

وكان يشق قلب القاهرة إلى مطلع هـذا القرن خليـج كان أول مجرى يتلقى مياه الفيضان تتدفق إليه من مصب انـدثر مكـانه الآن، ليسـير بعـد ذلـك فى اتجـاه شـارع المـوسكى، وكان هـذا الخليج يضفى - فعـلاً لا مجازاً - على المنازل المطلة عليه عطور مدينـة جديـرة بأن تسمى «بندقية الشرق»، وقد حل هذا الخليـج محل القنـاة التى انشأها الامبراطور الرومانى تـراجان لـربط وادى النيل بخليج السويس عبر شرق الـدلتا، وقـد بطل استخـدام

obeikandi.com

هذه القناة إلى أن جددها عمرو بن العاص، أول حاكم مسلم لمصر، ليتسنى تصدير الغلال من مصر لبلاد العرب. وشارع الخليج الآن - وكذلك شارع الكورنيش - هو أطول شوارع القاهرة، أنه شارع عريض لا يسلم من الدمامة، وعمدان النور فيه قميئة مصنوعة من الألومنيوم اسمه الآن شارع بورسعيد. حقًّا أن أسماء الشوراع اسرع من مجارى الأنهار فى التبدل.

وكان النيل فى مطلع القرن التاسع عشر - كالبسفور - بمثابة الهوة المخيفة تحت قصور الحكام، يلقى فيها بمثيرى المتاعب من الرعايا وهم موثقون لتتلقفهم أحضان نهر لا ندرى هل له عشق الذكر أم عشق الأنثى، أما اليوم فقد اختفت هذه الذكريات الأليمة وصار النهر عنصر وداعة ورقة فى مدينة تتصف بحدة الملامح والطبع.

وأما فندق سميراميس يقف نوتية سمر الوجوه لتلبية رغبة من يريد من أهل البلد أو الأجانب استئجار فلوكة، وأغلب هؤلاء الرجال من أسوان فى أقصى

الجنوب. وأجرة نزهة لمدة ساعة هى خمسة شلنات، وما أن تخطو فوق صقالة مهتزة حتى تتراجع بعيداً إلى الوراء كل ضجة ورائحة للبترول وتنتفخ بالهواء القلاع المرقعة وتعالج بحذق فإذا بالأذن يشجيها صوت تلاطم الماء على جانبى الفلوكة. إن شكلها مخلد على صفحة النيل، تنساب أمام المبنى الحديث لمستشفى قصر العينى إلى كوبرى الجامعة، وفى أيام الأعياد والعطلات تنبعث غلالة من الماء أعلى من الفنادق من نافورة من الأسمنت وسط النهر أقامها «مصنع كروب لإقامة الكبارى».

ويختلف نهر النيل عن نهر عربى كبير هو الآخر، نهر دجلة، واسمه فى اليونانية تيجريس بمعنى النمر، فدجلة نهر مفترس عنيف يطغى على الأراضى فى أسوأ موعد، أى فى فصل الربيع حين لا حاجة بعد لفيضانه، أما نهر النيل فهو أكثر انهار العالم نفعاً - نافع للرى والنقل على سواء، فإن تياره المتدافع دوماً نحو الشمال يحمل السفن إلى البحر الأبيض المتوسط، ورياحه الغالبة عليه تهب من ناحية هذا البحر فى الشمال فهى تسهل على هذه

السفن رحلة العودة دون حاجة إلى عون آخر، وأهم من هذا كله فهو يفيض عندما تشتد الحاجة إلى مياهه أى عندما يبدأ لهيب الصيف فى تقديد الحقول.

ويحب أهل القاهرة النيل لأنه عنصر الوداعة والرقة فى بيئتهم الصحراوية، وأفضل المساكن ما كان مطلاً عليه، وبعد أن احترق فندق شبرد فى مكانه القديم بجوار الأزبكية، أقيم له مبنى حديث يطل إلى الغرب على النيل هو وفندق سميراميس وفندق هيلتون. وينشق النيل إلى فرعين إذا التقى بالجزيرة الوسطى، أما فرعه الغربى الضيق فتصطف فيه بيوت من الخشب، هى العوامات، قميئة وإن تكن عليها مسحة رومانتيكية، وأكبر عيب فيها أنها عرضة لهجوم البعوض.

ويتم خنوع النيل للقياد عند القناطر الخيرية شمال القاهرة. إنها سد عريض يحتجز الماء لأشهر أربعة عطشى. وهذه القناطر رمز لتوسط موقع القاهرة عبر التاريخ فهى مقامة عند رأس الدلتا فملكت السيطرة على مصر السفلى والعليا، ومن ملك مفتاح الماء فى بلد

obeikandi.com

صحـراوى ملك البلد كله. ويرجـع الفضـل فى اكتسـاب القـاهرة لأهميتهـا إلى أنها واقعة حيث يتفـرع المجـرى الموحد للنيل إلى عدة رياحات تنتشـر شمالا كـالمروحـة لتـروى أرضا هى مضـرب المثـل فى الخصب. والقـاهـرة ليست مدينة كبيرة فحسب، بل أنها عاصمة كبيـرة أيضًا فى يـدها مقـاليد أمـة بلا منـازع، ولكن أهلها خليط من أجناس عديدة..

openikandl.com